الشيخ الوحيد الخراساني.. رحلة قرن في رحاب العلم والإيمان

يُعد آية الله العظمى الشيخ حسين الوحيد الخراساني واحدًا من أبرز المراجع الدينيين في العصر الحديث، ومن كبار أساتذة الفقه وأصوله في الحوزة العلمية بمدينة قم المقدسة، حيث ارتبط اسمه بعقود طويلة من التدريس والبحث والتحقيق العلمي، فضلًا عن اهتمامه العميق بنشر معارف أهل البيت (عليهم السلام)، وإحياء الشعائر الدينية، وترسيخ القيم الإيمانية والأخلاقية.

وقد امتدت حياته لأكثر من قرن، شهد خلالها تحولات علمية واجتماعية وسياسية كبرى، وظل حاضرًا في المشهد الحوزوي من خلال دروسه ومؤلفاته وتوجيهاته الدينية، حتى أصبح من الشخصيات المرجعية التي تركت أثرًا واضحًا في أجيال متعاقبة من طلبة العلوم الدينية.

الولادة والنشأة العلمية:

وُلد الشيخ حسين بن إسماعيل الوحيد الخراساني سنة 1339هـ، الموافق لعام 1921م، في منطقة خراسان بإيران، ونشأ في بيئة دينية اهتمت بالعلم والمعرفة والالتزام بالقيم الإسلامية.

وقد أسهمت هذه البيئة في توجيهه منذ صغره نحو الدراسات الدينية، فبدأ بتعلم اللغة العربية وآدابها، والمنطق، والمقدمات الفقهية والأصولية، قبل أن ينتقل إلى مراحل أكثر تقدمًا من التحصيل العلمي.

وكانت مدينة مشهد المقدسة، بما تضمه من مدارس دينية وحلقات علمية، المحطة الأولى في تكوين شخصيته العلمية، حيث تلقى علومه على أيدي عدد من الأساتذة المعروفين، وتدرج في دراسة المتون الحوزوية الأساسية.

وقد ظهرت لديه منذ مراحل دراسته المبكرة عناية خاصة بالتدقيق في المسائل العلمية، ومناقشة الأدلة، والبحث عن الأسس التي تقوم عليها الأحكام الشرعية.

الهجرة إلى النجف الأشرف:

شكّلت هجرته إلى النجف الأشرف محطة مفصلية في حياته العلمية؛ فالنجف كانت ولا تزال إحدى أهم الحواضر العلمية لدى الشيعة الإمامية، وقد احتضنت عبر تاريخها كبار الفقهاء والمحققين.

وفي النجف، انخرط الشيخ الوحيد الخراساني في الدراسات العليا، وحضر أبحاث عدد من أعلام الحوزة، وفي مقدمتهم آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، الذي استفاد من منهجه الفقهي والأصولي، ولازم دروسه سنوات طويلة.

كما ارتبطت دراسته بأسماء علمية بارزة، من بينها السيد محسن الحكيم، واستفاد من الأجواء العلمية والأخلاقية التي تميزت بها الحوزة النجفية.

وقد أسهمت هذه المرحلة في تعميق ملكته الاجتهادية، وصقل قدرته على تحليل الروايات والنصوص الشرعية، ومناقشة الآراء الفقهية والأصولية المختلفة.

ولم يقتصر نشاطه على التلقي والتحصيل، بل بدأ التدريس وإعداد الطلبة، ليؤسس بذلك مرحلة جديدة من مسيرته العلمية.

الاستقرار في قم وتكوين مدرسة علمية:

بعد مراحل من التنقل بين الحواضر العلمية، استقر الشيخ الوحيد الخراساني في مدينة قم المقدسة، التي أصبحت المركز الأساسي لنشاطه العلمي والتدريسي.

وقد اشتهرت دروسه العليا، المعروفة في الاصطلاح الحوزوي باسم «البحث الخارج»، باستقطاب أعداد كبيرة من طلبة العلوم الدينية، ولا سيما المتقدمين في دراسة الفقه وأصوله.

ويمثل البحث الخارج أعلى المراحل الدراسية التقليدية في الحوزات العلمية، حيث لا يلتزم الأستاذ بشرح كتاب محدد، بل يعرض المسائل الفقهية والأصولية، ويناقش أدلتها وآراء العلماء فيها، وصولًا إلى ترجيح المباني العلمية التي يراها أقرب إلى الدليل.

وقد تميزت دروس الشيخ الوحيد بالدقة في معالجة المسائل، والاهتمام بالتفاصيل الأصولية، ومناقشة آراء كبار المحققين، وفي مقدمتهم الشيخ الأنصاري والمحقق النائيني والسيد الخوئي.

ومن خلال هذه الدروس، أسهم في إعداد أجيال من العلماء والباحثين الذين واصلوا التدريس والتحقيق في الحوزات العلمية.

منهجه الفقهي والأصولي:

اتسم منهج الشيخ الوحيد الخراساني بالعناية بالاستدلال والتحقيق، والاعتماد على دراسة النصوص الشرعية ومناقشة دلالاتها وأسانيدها، مع الاهتمام بالمباني العقلية والأصولية التي يستند إليها الفقيه في عملية الاستنباط.

وقد عُرف بدقته في التفريق بين الآراء العلمية، وعدم الاكتفاء بنقل أقوال الفقهاء، بل السعي إلى تحليلها واختبار أدلتها.

وكان يرى في الدراسة الحوزوية مسؤولية علمية تتطلب الصبر والمثابرة والابتعاد عن التسرع في إصدار الأحكام.

كما أولى أهمية خاصة لتكوين الشخصية العلمية المستقلة لدى الطالب، بحيث يمتلك القدرة على فهم الدليل ومناقشته، بدل الاقتصار على حفظ النتائج الفقهية.

وقد انعكس هذا المنهج على طبيعة دروسه التي جمعت بين العمق العلمي والبحث التفصيلي.

موسوعية علمية تتجاوز حدود التخصص:

لم يكن الشيخ الوحيد الخراساني، وفق شهادات تلامذته، فقيهًا متخصصًا في الفقه والأصول فحسب، بل امتلك اطلاعًا واسعًا على موضوعات علمية وتاريخية وأدبية وثقافية متعددة.

ومن المواقف اللافتة التي رواها الشيخ عبد الجليل البن سعد أن أحد أبرز تلامذة المرجع حدثه عن دروس كانت تُعقد في ليالي شهر رمضان، حين كانت الكهرباء تنقطع بصورة متكررة.

وفي إحدى الليالي، انقطعت الكهرباء أثناء الدرس، وتعذر على الطلبة مواصلة كتابة الملاحظات والتقريرات.

وطلبوا من أستاذهم إيقاف الدرس حتى تعود الكهرباء، لكنه اختار الاستمرار بطريقة مختلفة.

فبدًلا من مواصلة البحث الفقهي، انتقل إلى الحديث عن المخترع توماس إديسون وتاريخ الكهرباء، واستمر في الحديث قرابة ساعة.

وتبرز هذه الحادثة سعة اطلاعه، وقدرته على الانتقال من موضوع علمي إلى آخر، فضًلا عن حرصه على استثمار الوقت وعدم تعطيل الدرس.

كما نقل الشيخ البن سعد موقفًا آخر تحدث فيه المرجع عن العهد القديم والعهد الجديد والتلمود، وما يتصل بتاريخ النصوص الدينية ونسخها، مستحضرًا معلومات وتفاصيل عديدة.

وهذه الشهادات تعكس صورة العالم الذي لا يحصر اهتمامه في تخصص واحد، بل ينفتح على المعارف المختلفة بما يعزز قدرته على الفهم والتحليل والمناقشة.

العناية بالطلاب وبناء الأجيال العلمية:

من الجوانب المميزة في شخصية الشيخ الوحيد الخراساني اهتمامه بتلامذته، وحرصه على الارتقاء بمستوياتهم العلمية.

وقد روى الشيخ البن سعد أنه عندما اتسعت حلقات دروس المرجع في مسجد الأعظم بمدينة قم، أصبح بين الحاضرين تفاوت كبير في المستويات والخبرات.

فبعضهم لازم دروسه عشرين عامًا، بينما التحق آخرون حديثًا.

ولاحظ الشيخ أن الطلبة الجدد قد يجدون صعوبة في متابعة الأبحاث المتقدمة، فنبّه إلى ضرورة عدم مساواة الطالب المبتدئ بمن أمضى سنوات طويلة في التحصيل.

ولم يكتفِ بالتوجيه، بل وضع برنامجًا يستفيد فيه الطلبة المستجدون من زملائهم المتقدمين، وكلف بعض أبرز تلامذته بمساعدتهم وتوجيههم.

ويكشف هذا الموقف عن رؤية تربوية مهمة، تقوم على أن نجاح الأستاذ لا يُقاس بمستوى درسه وحده، بل بقدرته على إعداد طلابه، ومراعاة الفروق العلمية بينهم، وتوفير الوسائل التي تساعدهم على التقدم.

الجمع بين الفقه والعقيدة:

حرص المرجع الوحيد الخراساني على إحياء تقليد علمي قديم، يتمثل في تقديم بعض المباحث العقائدية قبل عرض الأحكام الفقهية في الرسائل العملية.

فقد لاحظ أن هذا التقليد تراجع لدى بعض المؤلفات الفقهية المعاصرة، فرأى أهمية إعادة الاهتمام به.

ومن هنا، وضع مقدمة عقائدية لرسالته العملية «منهاج الصالحين»، لتكون مدخلًا إلى أبرز المسائل الاعتقادية، إلى جانب ما يتضمنه الكتاب من أحكام شرعية.

ويعكس هذا التوجه إدراكًا لأهمية التكامل بين العقيدة والفقه؛ فالمعرفة الدينية لا تقتصر على معرفة الحلال والحرام، بل تشمل أيضًا فهم الأصول الإيمانية التي تقوم عليها الممارسة الدينية.

اهتمامه بالعقائد ومعارف أهل البيت:

لم تنحصر اهتمامات الشيخ الوحيد الخراساني في الفقه وأصوله، بل امتدت إلى الجوانب العقائدية والتربوية، ولا سيما التعريف بمقامات النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام).

وقد احتلت سيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) مكانة خاصة في خطاباته ومحاضراته، حيث كان يؤكد ضرورة التعرف إلى منزلتها الدينية، والتأمل في سيرتها ومواقفها وما تمثله من قيم إيمانية وأخلاقية.

كما عُرف باهتمامه بإحياء ذكرى عاشوراء، وتعظيم نهضة الإمام الحسين (عليه السلام)، باعتبارها مدرسة في التضحية والثبات على المبادئ ومواجهة الظلم.

وكان يؤكد في توجيهاته أن الشعائر الدينية ينبغي أن تكون وسيلة لتعميق الوعي الإيماني، وإصلاح النفس، وترسيخ الارتباط بالقيم التي جسدها أهل البيت.

القرآن الكريم في توجيهاته:

احتل القرآن الكريم موقعًا محوريًا في وصايا الشيخ الوحيد الخراساني، إذ كان يحث المؤمنين وطلبة العلوم الدينية على المواظبة على تلاوته والتدبر في معانيه.

ومن أبرز التوجيهات المنقولة عنه الدعوة إلى قراءة جزء من القرآن يوميًا، وإهداء ثواب التلاوة إلى الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

وكان ينظر إلى القرآن باعتباره مصدرًا للهداية والتزكية، ووسيلة لتربية النفس وإحياء الضمير الإنساني.

كما شدد على أهمية المحافظة على الصلاة في أول وقتها، والتوكل على الله تعالى، ومحاسبة النفس، وعدم الانشغال بالمظاهر الدنيوية على حساب الاستعداد للآخرة.

وتكشف هذه الوصايا عن اهتمامه بالجمع بين التحصيل العلمي والبناء الروحي، باعتبارهما عنصرين متكاملين في شخصية العالم الديني.

عاشوراء ومكانة الإمام الحسين:

من أبرز الموضوعات التي تكررت في خطاب الشيخ الوحيد الخراساني الحديث عن عظمة نهضة الإمام الحسين (عليه السلام)، وما تحمله من أبعاد دينية وإنسانية.

وقد تناول في مجالسه المعاني العميقة للتضحية الحسينية، مؤكدًا أن واقعة كربلاء لم تكن مجرد حدث تاريخي، بل مدرسة متجددة في الإيمان والصبر والوفاء.

وكان يدعو إلى إحياء المجالس الحسينية، والعناية بخدمة زوار الإمام الحسين، وتقدير الجهود التي يبذلها القائمون على الشعائر والمواكب الدينية.

كما أكد أهمية الإخلاص والتواضع في خدمة الزائرين، والنظر إلى هذه الخدمة باعتبارها مسؤولية دينية وأخلاقية قبل أن تكون مظهرًا اجتماعيًا.

المؤلفات والآثار العلمية:

ترك الشيخ الوحيد الخراساني تراثًا علميًا يتوزع بين المؤلفات الفقهية والأصولية والعقائدية، فضلًا عن تقريرات دروسه التي دوّنها عدد من تلامذته.

ومن أبرز الكتب والآثار المرتبطة باسمه:

* منهاج الصالحين: ويتناول الأحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات والمعاملات وغيرها من أبواب الفقه.

* مناسك الحج: ويتضمن الأحكام الفقهية الخاصة بالحج والعمرة.

* أحكام النساء (مختص بالأحكام الفقهية المتعلقة بالنساء).

* أحكام المسافر.

* أحكام المهاجرين.

* خلاصة الأصول: في المباحث الأصولية.

* نخبة الكلام في معرفة الإمام: ويتناول مباحث عقائدية مرتبطة بالإمامة.

* تقريرات أبحاثه الفقهية والأصولية: وهي من الآثار التي تعكس منهجه في الاستدلال والتحقيق.

* أسرار الصلاة.

* النور الأول: الرسول الأعظم.

* مصباح الهدى وسفينة النجاة (مجموعة محاضرات في 3 أجزاء).

* فاطمة حلقة وصل رسالة وإمامة.

* شرح دعاء عرفة.

* مقتطفات ولائية (دراسات ومحاضرات).

* مؤلفات لم تطبع بعد أو مخطوطات دراسية:

* شرح شرائع الإسلام.

* حاشية على الكفاية (كفاية الأصول).

وتبرز أهمية هذا النتاج في كونه امتدادًا لمدرسته العلمية، ومصدرًا يستفيد منه الباحثون وطلبة الدراسات الدينية المتقدمة.

وصاياه الأخلاقية والتربوية:

تميّزت كلمات الشيخ الوحيد الخراساني بالتركيز على تزكية النفس، واليقظة من الغفلة، واستثمار العمر فيما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.

وكان يحذر من الانشغال المفرط بالدنيا، ويدعو إلى إدراك قيمة الوقت، والاستعداد للقاء الله تعالى بالعمل الصالح.

ومن المعاني المتكررة في وصاياه أن العلم لا يكتمل أثره دون تقوى، وأن العالم الديني مطالب بأن يكون قدوة في السلوك قبل أن يكون مرجعًا في المعرفة.

كما دعا إلى المحافظة على الصلاة، والارتباط بالقرآن الكريم، والاهتمام بالتربية الأخلاقية، وتعميق روح التواضع والإخلاص.

وتحمل هذه التوجيهات رسالة مهمة، مفادها أن القيمة الحقيقية للعلم لا تتحدد بكثرة المعلومات

وحدها، بل بقدرته على إصلاح الإنسان وخدمة المجتمع.

أثره في الحوزة العلمية:

امتدت آثار الشيخ الوحيد الخراساني إلى أجيال متعددة من العلماء والفضلاء، سواء من خلال التدريس المباشر أو عبر المؤلفات وتقريرات الأبحاث العلمية.

وقد أسهم حضوره الطويل في الحوزة العلمية بمدينة قم في تعزيز مكانتها مركزًا للدراسات الفقهية والأصولية المتقدمة.

كما مثّل حلقة وصل بين المدرسة العلمية النجفية التي تلقى فيها علومه، والمدرسة القمية التي مارس فيها نشاطه التدريسي لعقود طويلة.

ومن هنا، فإن دراسة سيرته لا تقتصر على التعريف بشخصية دينية بارزة، بل تفتح نافذة لفهم جانب مهم من تاريخ الحوزات العلمية المعاصرة، وتطور مناهجها وأساليبها في إعداد العلماء.

إرث علمي وروحي ممتد:

تمثل سيرة آية الله العظمى الشيخ حسين الوحيد الخراساني نموذجًا لمسيرة علمية طويلة، اجتمع فيها التحصيل والتدريس والتأليف والتوجيه الديني.

فقد أمضى عقودًا في دراسة الفقه وأصوله، وإعداد طلبة العلوم الدينية، ونشر معارف أهل البيت (عليهم السلام)، مع اهتمام واضح بالجوانب الأخلاقية والروحية.

ولعل أبرز ما يميز هذه المسيرة هو استمرار العطاء العلمي عبر أجيال متعاقبة، وما تركته دروسه وتوجيهاته من أثر في الأوساط الحوزوية.

إن العلماء لا تُقاس مكانتهم بطول أعمارهم وحده، وإنما بما يتركونه من علم نافع، وتلامذة يحملون رسالتهم، وآثار فكرية تبقى حاضرة بعد انقضاء حياتهم.

وهكذا تبقى سيرة الشيخ الوحيد الخراساني جزءًا مهمًا من تاريخ المرجعية الدينية والحوزة العلمية في العصر الحديث، وشاهدًا على مسيرة امتدت لأكثر من قرن في خدمة العلم والدين.